الدهاء

إذا تحدث الراوية العربى عن صفة من الصفات العامة بلغ بها حد الاستقصاء، فأثبت فى روايته كل ما يقع عليه الحس من أخبار تلك الصفة وذكر لنا الأعلام المشهورين بها والحوادث التى دلت عليها والأقوال التى قالوها أو قيلت عنهم بصددها، والفوارق التى يختلفون بها فيما بينهم والألقاب التى أطلقت عليهم من جرأتها ولم يتركوا مرجعًا من مراجع الدراسة التى يحتاج إليها الباحث العصرى فى استقصائه الحديث بعد استقصائهم القديم، إلا تحليل الصفات على حسب عواملها النفسية، فإنه باب لم يطرقوه ولم يطرقه أحد غيرهم من الأقدمين فى الأمم، وعذرهم فى ذلك واضح لا تلزمهم بعده حجة: عذرهم أن التحليل النفسى كله دراسة حديثة تركبت على دراسات علمية أو فكرية أخرى لم يكن للأقدمين عهد بها إلى ما قبل بضعة قرون.

كذلك تحدث لنا الراوية العربى عن شجعان العرب وفرسان العرب وأجواد العرب وصعاليك العرب ودهاة العرب فى الإسلام ودهاة العرب فى الجاهلية وكل ذوى الشهرة فى صفة من الصفات العامة التى تتعلق بها الروايات وتتناقل بها الأخبار.

ويبدو لنا - ونحن نقرأ كلامهم عن دهاة العرب - أنهم كانوا "مولعين" بتلك الصفة خاصة، يتحدثون بها ويستطيبون حديثها ويتزيدون فيه كلما استطاعوا، كأنهم يجاوزون بالدهاء حد الإعجاب إلى حد التمنى والعطف والمشاركة فى الشعور، وعذرهم فى هذا أيضًا واضح من تاريخهم وتواريخ منازعاتهم ومصالحهم. فإنهم كانوا يتفقدون فيها الدهاء جميعًا فيجدونه حينًا ولا يجدونه حينًا آخر، ولكنهم كانوا يجدون الشجاعة والفروسية فى كل حين.

وسبب آخر من أسباب الولع بالحديث عن الدهاء أنه أصبح كفؤا للشجاعة أو راجحًا عليها فى موازين الصفات الاجتماعية، فإذا عيب رجل من رجالهم بقلة الشجاعة وجد العزاء - وفوق العزاء - بشهرة الدهاء أو دعواه إن لم يكن قد بلغ بدهائه مبلغ الشهرة الذائعة الصيت.

فالدهاء عندهم كان مزية وضرورة وعزاء وغطاء للخوف والجبن ودعوى سهلة لمن يدعيها بغير برهان. أما الشجاعة فبرهانها حاضر لا سبيل للمغالطة فيه.

ولهذا يتزيد الرواة كثيراً فى أحاديث الدهاء، ويوشك أن يجعلوه صفة من الصفات "السلبية" التى تقترن بنقص الشجاعة حيث نقصت فى مجال الغضب أو مجال الصولة والقتال، وكاد القارئ أن يفهم - بدهائه - من وصف رجل بالدهاء أنه رجل لا صولة له ولا خوف من غضبه وبأسه، وإنما الخوف مما يحتال به أو يكيد.

وكثير من أحاديثهم عن الدهاء يدخل فى عداد هذه المعاذير أو هذه الخلال المتشابهات، ولكنهم إذا اتفقوا على دهاء رجل فى سيرة حياته بحذافيرها فالغالب أن يكون على شىء من الدهاء، وإن لم يكن دهاتهم كلهم من نوع واحد عند تحليل الأعمال والصفات، ولم يكن مصدر ذلك الدهاء ملكة واحدة فى العقل أو فى الطباع.

لقد كانوا يطلقون الدهاء على كل وسيلة "غير صريحة" يبلغ بها صاحبها مأربه وينتهى بها إلى منفعته . . فكل حيلة "غير صريحة" فهى دهاء على سواء.

إلا أن الواقع أن الوسائل "غير الصريحة" لا تتفق فى مصادرها العقلية.

فقد يعتمد الرجل فى دهاءه على قدرة عقلية فائقة يتسلط بها على الناس فيسخرهم فى مطامعه ويقودهم كما يقاد المسخر "بالتنويم المغناطيسى" لخدمته فيما يستفيدون منه أو فيما لا فائدة لهم فيه على الإطلاق . . . وقد يكون فيه الضرر لهم كل الضرر وهم لا يفقهون، ويغشاهم السحر بغشاوته فلا يستمعون لما يقال لهم غير ما يقوله ذلك الداهية أو يوحيه إلى شعورهم بغير مقال.

هذا هو الدهاء من الطراز الأول.

ويليه الدهاء الذى لا يعتمد على قدرة عقلية فائقة ولكنه يعتمد على قدرة "مادية" يستطيع بها صاحبها قضاء المصالح والتعامل مع غيره على أساس "التبادل" فى المنفعة المعروفة التى يفهمها المتبادلون جميعًا بغير حاجة إلى تعزيز أو خداع أو إقناع.

رجل يملك السلطان أو المال، وأناس يحتاجون إلى سلطانه وماله، ولا يقدرون على بلوغ تلك الحاجة من غيره . . فلا هو يخدعهم ولا هم يخدعونه، لأنهم كلهم يعرفون ما يطلبونه ويعرفون وسيلتهم إليه، فلا خادع فيهم ولا مخدوع، وإن لم يكونوا جميعًا صرحاء قيمًا يتوسلون به أو يتسلون إليه.

من أى هذين الطرزين دهاء معاوية؟

أمن طراز القدرة العقلية الفائقة التى تسخر الأعوان منقادين متسللين مغمضى الإبصار والبصائر، أم من طراز القدرة المادية التى تغطى وتأخذ ويعاملها طلاب الحاجات لأنهم يعرفون ما يحتاجون إليه ولا يعرفون طريقًا إليل حاجاتهم تلك غير هذه الطريق؟

بأى الدهائين تمكن معاوية من اجتذاب عمرو بن العاص والمغيرة بن

شعبة وزياد بن أبيه وغيرهم من الدهاة الذين سارت بدهائهم الأمثال فى صدر الإسلام؟

لعلنا نستطيع أن نقول أن هؤلاء الدهاة ومن جرى مجراهم قد خدعوه وسخروه لقضاء مآربهم كما نستطيع أن نقول أنه هو قد خدعهم وسخرهم لقضاء مآربه . . فإنهم جميعًا قد أخذوا ناجزًا مضمونًا حيث يأخذ منهم العوض مقدرًا غير مضمون، وأيا كان القول فليس دهاء معاوية هنا دهاء القدرة العقلية الفائقة التى أوقعت فى روع أعوانه زعمًا تخفى عليهم حقيقته وينقادون به إليه وهم لا يفقهون. وإنما أخذ منهم وأخذوا منه على حد سواء، وإنما أعطاهم المصلحة التى يريدونها ولا ينتظرون قضاءها عند غيرها، ولم يتمكن من إعطائهم تلك المصلحة إلا أنه سبقهم إلى ولاية الشام عشرين سنة ووضع أيديه على المرافق التى لم يكن فى وسع واحد منهم أن يضع عليها يدا من أيديه.

***

إن رواة التاريخ العربى يحدثوننا كعادتهم فى التوصيف والتقسيم، عن دهائهم فى صدر الإسلام فيقولون أنهم أربعة. عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وزياد بن ابيه ومعاوية بن أبى سفيان، ويقولون أن ابن العاص للبديهة، والمغيرة للمعضلات، وزياد لكل كبيرة وصغيرة ومعاوية للروية.

وهذا تقسيم صحيح فى جملته على الإيجاز، وقد يعرض له بعض التعديل لعند الإسهاب والتفصيل، ولكن الرأى والذى لا شك فيه أنهم جميعًا من الدهاة على اختلاف نوع الدهاء، وأن دهاء الثلاثة الأولين هو الذى قادهم إلى معاوية ولم يكن دهاء معاوية هو الذى قادهم إليه. فقد عرفوا مطالبهم وعرفوا أنهم يجدونها عند معاوية حيث لا يجدونها عند غيره، ولو أنهم استطاعوا أن ينازعوه الخلافة لما سلموها له طوعًا ولما قنعوا منه بالصيت الذى

ارتضوه فى خلافته. ولكن الخلافة كانت مطلبًا بعيداً عليهم فلم يضيعوا فيه جهودهم ونظروا إلى غاية المطالب دونه فبلغوه بجهد يسير.

لم تكن لأحد منهم ولاية تمتد فتشمل سائر الولايات وتنتهى بذلك إلى الخلافة إلا زياداً بن أبيه. فإنه كان واليًا على أقاليم من فارس يخشى بأسه لما عنده من المال والجند ولكنه مغمور النسب يدعونه بابن أبيه قبل أن ينسبه معاوية إلى أبى سفيان، ولن يسلس زمام الخلافة لرجل مثله إلى جانب طالب من طلابها كمعاوية أو من دون معاوية فى النسب والمكانة.

أما ابن العاص والمغيرة بن شعبة فقد كانا من أحاد الرعية يوم نشب النزاع على الخلافة بين عميد بنى هاشم على بن أبى طالب وعميد بنى أمية معاوية بن أبى سفيان، ولم يكن لأحدهما جند ولا مال ولا عصبة تنافس العصبة الهاشمية أو العصبة الأموية، فهما خليقان أن ينظرا إلى المطلب الميسور حيث تيسر، وقد نظرا إليها فلم يعرفا له طريقًا أقرب من طريق معاوية وبخاصة بعد مقتل على رضوان الله عليه.

وقصة كل رجل من هؤلاء الدهاة الثلاثة لا تدع محلا للظن بأنهم سبقوا إلى نصرة معاوية مخدوعين أو منقادين بحيلة من حيل الدهاء، بل هى حرية أن تنبئنا بغلبتهم على معاوية فى المبادلة، وأنهم أخذوا منه فوق ما أعطوه، وأنه هو قد أطاهم شيئًا فى اليد حين كان عطاؤهم كله شيئًا فى التقدير، أما من قبيل الأمل المنظور أو من قبيل الخوف المحذور.

دعا عمرو بن العاص ولديه عبد الله ومحمداً فقال لهما: إنى قد رأيت رأيًا ولستما بالذين تردانى عن رأيى، ولكن تشيران على . . إنى رأيت العرب صاروا عنزين يضطربان وأنا طارح ننفسى بين جزارى مكة ولست أرضى بهذه المنزلة، فإلى أى الفريقين أعمد؟

قال عبد الله - وهو من أهل التقوى - إن كنت لابد فاعلا فإلى علي..

قال عمرو: إني إن أتيت عليًا يقول لي إنما أنت رجل من المسلمين، وإن أتيت معاوية يخلطني بنفسه ويشركني في أمره، وكان محمد ابنه الآخر على هذا الرأي فقال لهما عمرو: أما أنت يا عبد الله فقد اخترت لآخرتي، وأما أنت يا محمد فقد اخترت لدنياي.

ويروى أنه لما استشارهما قال له عبد الله: إن النبي عليه السلام قد توفي والشيخان بعده وهم راضون عنك، فأرى أن تكف يدك وتجلس في بيتك حتى يجتمع الناس، وقال له محمد: أنت ناب من أنياب العرب فكيف يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صوت؟ فأجابهما بما تقدم وأتى معاوية فوجدهم يطلبون دم عثمان فمضى معهم يقول: اطلبوا دم الخليفة المقتول.

والمشهور في رواية صاحب الإمامة والسياسة ابن قتيبة أن معاوية كان غافلا عن شأن عمر وعن خطره في معونة أي الفريقين فأعرض عنه حتى نبه عتبة بن أبي سفيان إلى شأنه وخطره فكتب إليه يقول: "أما بعد فقد كان من أمر علي وطلحة والزبير ما قد بلغك وقد سقط علينا مروان بن الحكم في رافضة من أهل البصرة وقدم على جرير بن عبد الله في بيعة علي وقد حسبت نفسي عليك فأقدم على بركة الله.

وتردد عمرو قليلا بين شد الرحال وحط الرحال فقال له غلامه وردان - وهو من الموصوفين معه بالدهاء: أما أنك إن شئت بدأتك بما في نفسك: اعترضت الدنيا والآخرة على قلبك فقلت مع علي الآخرة بلا دنيا، ومع معاوية الدنيا بلا آخرة، فأنت واقف بينهما. فقال عمرو: ما أخطأت ما في نفسي، فما ترى يا وردان! فقال: أرى أن تقيم في منزلك فإن ظهر أهل

الدين عشت فى دينهم، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك، فقال عمرو: الآن حين شهرتنى العرب بمسيرى إلى معاوية؟

وقدم عمرو على معاوية فساومه على رضاه فلم يقنع بما دون ولاية مصر مدى الحياة، وهذه صفقة كأنها صفقة المنتصر الذى يملى شروطه فى حومة الحرب، لأن ابن العاص كان واليًا على مصر فعزله عثمان ولم يزل واجداً على عثمان لذلك حتى قيل أنه كان يحرض عليه ويخاذل بين أنصاره، فإذا جاء الرجل قومًا يطلبون دم عثمان فأخذ منهم ما إياه عثمان عليه فإنما هو الرغم ولا مبالاة بما يقولون وبما يقال!

وشق على معاوية أن يجيبه إلى هذا المطلب الضخم "فتلكأ معاوية - كما جاء فى الأمامة والسياسة - وقال: ألم تعلم أن مصر كالشام؟ قال: بلى، ولكنها إنما تكون لى إذا كانت لك، وإنما تكون إذا طلبت عليًا على العراق . . فدخل عتبة بن أبى سفيان على معاوية فقال: أما ترضى أن تشترى عمراً بمصر؟ إن هى صفت لك ليتك لا تغلب على الشام. فلما سمع معاوية عتبة بعص إلى عمرو فأعطاه مصر وكتب فى أسفل الكتاب: ولا ينقض شرط طاعة، فكتب عمرو: ولا تنقض طاعة شرطًا".

وعلى هذا خرج عمرو من الصفقة غالبًا غير مغلوب، وفهم ما يبتغيه فقصد إليه ولم يكن معاوية يفيهم ما يبتغيه إلا بعد ممانعة واستعصاء . . وقد عقد معاوية لعمرو بعد ذلك أربعة ألوية: لواء له ولواء لكل من ولديه ولواء لغلامه وردان.

يقال فى مصطلحات عصرنا عن الحيلة التى لا تخفى ولا حاجة بها إلى إخفاء أنها "لعب على الكشوف" . . كأنما هى لعبة تلعب نفسها بنفسها ولا محل فيها لتدبير اللاعبين لظهوره وأتبعه فى اللعب منهجًا لا محيد عنه.

وهكذا كانت الحيلة بين عمرو ومعاوية.

قال عمرو لمعاوية: "أترى أننا خالفنا عليًا لفضل منا عليه؟ .. لا والله. إن هى إلا الدنيا نتكالب عليها. وأيم الله لتقطعن لى قطعة من دنياك وإلا نابذتك".

وعلى هذه الخطة "المكشوفة" بدأت المعاملة بين الرجلتين، وكان حظ عمرو فيها أكبر من حظ معاوية، بالقياس إلى ما بذل فيه.

***

أما المغيرة بن شعبة فقد كان يبيع سمكًا فى البحر ويشترى به سمكًا مطبوخًا شهيًا على المائدة.

عزله الفاروق عن ولاية الكوفة لأن قومًا شهدوا عليه أنهم وجدوه على ريبة مع امرأة غير امرأته، وقال هو أنها امرأته وأن الأمر التبس على الناظرين لشبه بين المرأتين، ولم تثبت التهمة عليه ثبوتًا يوجب إقامة الحد، ولم تسقط عنه سقوطًا يزيل الشبهة، فعزله الفاروق وأبقاه زمنًا بغير عمل كأنه يؤدبه ويستتيبه، ثم بدا له أن يعيده إلى ولايته فدعاه إليه وشدد عليه ليجتبن الشبهات حتى الظنة، وولاة الكوفة مرة أخرى، فلما قام عثمان بالخلافة عزله فاعتزل السياسة حتى قتل عثمان وبويع على بالخلافة فى المدينة، فذهب إليه يمهد فى العهد الجديد للزلفى عند لإمام وعند صاحب الأمر بالشام - معاوية - فى وقت واحد، وأشار على الإمام بإقرار معاوية فى ولايته ليدين له بالولاء ثم يعزله متى شاء. فلما أبى الإمام أن يقره عاد إليه فى اليوم التالى فقال: "إن أشرت عليك أول مرة بالذى أشرت وخالفتنى فيه، ثم علمت أن الصواب فيما رأيت، فأعزلهم - أى ولاة عثمان - وأستعن بمن تثق به، فإنهم أهون شوكة مما كان".

وعاد المغيرة إلى عزلته يترقب، ثم قصد إلى معاوية بعد رجحان كفته فى أمر الحكمين غير مجازف بشىء بعد استقرار أمر الشام - على الأقل - لمعاوية وحزبه، فولاه معاوية أمرة الحج بعد انفراده بالدولة، وكان للمغيرة ينظر إلى ولايته الأولى على الكوفة كما نظر ابن العاص إلى ولايته الأولى على مصر، فلما أراد معاوية أن يعهد بهذه الولاية وعاد المغيرة إلى عزلته يترقب، ثم قصد إلى معاوية بعد رجحان كفته فى أمر الحكمين غير مجازف بشىء بعد استقرار أمر الشام - على الأقل - لمعاوية وحزبه، فولاه معاوية أمرة الحج بعد انفراده بالدولة، وكان المغيرة ينظر إلى ولايته الأولى على الكوفة كما نظر ابن العاص إلى ولايته الأولى على مصر، فلما أراد معاوية أن يعهد بهذه الولاية إلى عبد الله بن عمرو بن العاص ذهب إليه يبذل النصيحة التى يأخذ منا أكثر مما يهب وقال له: أتستعمل عبد الله على الكوفة وأباه على مصر؟ .. إنك بين نابى الأسد! فاستمع له معاوية وعزل عبد الله وولاه فى مكانه، وسمع عمرو بخبر هذه المكيدة فردها بمثلها، ولم يطلب إعادة عبد الله إلى ولايته بل قنع بحرمان المغيرة من ولاية الخراج واصطنع النصيحة للخليفة الجديد فجاءه يقول: إنك تستعمل المغيرة على الخراج فيأخذه ولا تستطيع أن تنتزعه منه، والرأى أن تولى على الخرج رجلا يخافك ولا تبالى أن تعزله متى شئت، وأن تيتعمل المغيرة على الصلاة والإمارة، فلا يقوى عليك بغير مال، فليبيع معاوية مشورته غير كاره. لأنها أكسبته المال والعداوة بين الداهتين.

ثم استقر الأمر لمعاوية فهان عليه خطب المغيرة وهم بعزله، ففهى الخبر إلى المغيرة من عيونه حول معاوية وأشفق من غضاضة العزل فآثر أن يذهب إليه معتزلا وأن يحتال مع ذلك حيلته التى يرغم بها معاوية على استبقائه وهو عزيز الجانب مرغوب فيه.

شخص إلى دمشق فاختلى بيزيد كأنه يلقاه عرضًا ووسوس له أن يطلب

إلى أبيه تسميته لولاية العهد، وزين له الأمر قائلا: "إن أصحاب النبى وكبراء قريش قد ذهبوا وبقى الأبناء وأنت من أفضلهم فلا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة؟ قال: أو ترى ذلك يتم؟ قال: نعم . . فدخل يزيد على أبيه وأخبره بمقالة المغيرة، فتعجل معاوية لقاءه واستدعاه ليطمئن إلى حقيقة الخبر، وابتدره سائلا: ما هذا الذى يقوله يزيد؟ . . قال: إنى يا أمير المؤمنين قد رأيت ما رأيت من سفك الدماء بعد عثمان، وفى يزيد منك خلف فأعقد له البيعة بعدك، فإن حدث بك حدث كان كهفًا للناس وخلفًا منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة . . قال معاوية: ومن لى بهذا؟ . . قال: أكفيك أنا أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة، ,ليس بين هذين المصرين أحد يخالف . . فأمره معاوية أن يرجع إلى الكوفة وأن يتحدث مع ثقاته فى ذلك، ثم يرى ما يرى.

قال المغيرة لبعض هؤلاء الثقات: لقد وضعت وحل معاوية فى غرز بعيد الغاية وفتقت عليهم فتقًا لا يرتق أبدًا، ثم أجابه ناس من قبيلة إلى بيعة يزيد فأرسل منهم عشرة إلى دمشق ولم يرسل سائرهم ليمد فى حبل المساومة. وكان من حكمة معاوية أنه استمهلهم وطلب إليهم إلا يعجلوا بإعلان رأيهم، ولم يكن إعلان هذا الرأى من أرب المغيرة لأنه باق فى ولايته ما احتاج الأمر إلى بقائه قبل إعلان البيعة والاتفاق عليها، وفى كل أولئك كان المغيرة كاسبًا لا يفقد شيئًا بقدر على استبقائه، فإن خرج مستعفيًا فذلك خير من خروجه معزولا، وإن كانت المساومة على ولاية يزيد للعهد مجدية له فيما أراد فقد ربح ولم يخسر، وباع السمك فى البحر والشبكة من عند غيره، وإن أعرض معاوية عن المساومة ولم يقبل عقد البيعة لابنه - وهو أبعد الفروض - فقد كسب الوالى المعزول ولاء يزيد ولم يفقد ولاء معاوية لأنه مفقود قبل ذلك . . ولعله يرمى من هذا التلويح بولاية العهد إلى استثارة

الأمير المحروم وإغرائه بأبيه وانتقامه منه بالكيد له فى حجاب الحرم إن لم يقدر على الانتقام منه بالثورة والعصيان، ويقال بحق فى جميع هذه الأحوال أن المخدوع من الرجلين - معاوية والمغيرة - لم يكن هو المغيرة إن كان لابد بينهما من مخدوع.

وكان زياد بن أبيه آخر المبايعين من الدهاة الثلاثة، فلم يستطع معاوية أن يقنعه بترك فرصة من الفرص التى كان يترقبها ويؤثرها على مبايعة معاوية بالخلافة، ولم يقبل على وعاوية وله رجاء قط فى الإعراض عنه، مع أنه كان أول المنظور إلى بيعتهم فى تقدير بنى أمية، لأنه كان - كما نقول فى عرف هذه الأيام - ولداً شرعيًا لأبى سفيان، وأخًا لمعاوية من أبيه.

ولاه على بن أبى طالب فارس وكرمان، فأرسل إليه معاوية يتوعده فقام زياد فى الناس خطيبًا يغلظ الجواب ويرد الوعيد بمثله، وجعل يقول فى خطبته على رؤوس أتباعه ومسمع من أعوان معاوية: "العجب كل العجب من ابن آكلة الأكباد ورأس النفاق! يخوفنى بقصده إياى وبينى وبينه ابن عم رسول الله فى المهاجرين والأنصار. أما والله لو أذن لى فى لقائه لوجدنى أحمر مخشيًا ضرابًا بالسيف" فكتب إليه معاوية يترضاه ويلين القول ودعاه بزياد من أبى سفيان، ثم قال: "كأنك لست أخى، وليلس صخر ابن حرب أباك وأبى، وشتان ما بينى وبينك. اطلب بدم ابن أبى العاص وأنت تقاتلنى، ولكن أدركك عرق الرخاوة من قبل النساء فكنت كتاركة بيضها بالعراء وملحفة بيض أخرى جناحها، قد رأيت .. إلا أؤاخذك بسوء سعيك وأن أصل رحمك وأبتغى الثواب من أمرك. فاعلم - أبا المغيرة - أنك لو خضت البحر فى طاعة القوم فتضرب بالسيف حتى ينقطع متنه لما ازددت منهم إلا بعدًا، فإن بنى عبد شمس ابغض إلى بنى هاشم من الشفرة إلى الثور الصريع وقد أوثق للذبح، فارجع - رحمك الله - إلى أصلك واتصل بقومك، ولا

تكن كالموصول يطير بريش غيره. فقد أصحبت ضال النسب، ولعمرى ما فعل بك ذلك إلا اللجاج. فإن أحببت جانبى ووثقت بى فأمرة بأمرة، وإن كرهت جانبى ولم تثق بقولى ففعل جميل، ولا على ولا لى. والسلام".

على أن زياداً لم يستجيب لدعوته حتى قتل الإمام وصالح ابنه الحسن معاوية على شروط تسلمه زمام الأمر كله فى حياته، ولبث معاوية قلقًا من جانبه لا يأمن مكره وجرأته، يقول لخاصته: ما يؤمننى أن يبايع لرجل من أهل البيت فإذا هو قد أعاد على الحرب جذعه؟ . . فتقدم المغيرة يتوسط بينهما ليشد ساعده بزياد فى كيده لابن العاص، واستأذن معاوية فى إتيانه فأذن له أن يلقاه ويتلطف فى خطابه وجاءه المغيرة على يأس من خلافة بنى هاشم وأمل مبسوط مع المواعيد وتصحيح النسب فى خلافة بنى أمية، واستجاب زياد للمغيرة فى أمر البيعة لمعاوية وتمنع بعد ذلك فى أمر البيعة ليزيد بولاية العهد، وأنفذ رجلا من ثقاته إلى الخليفة ليوصيه بالأناة "فإن دركًا فى تأخير خير من أناة فى عجلة" ولولا أنه مات قبل البيعة بولاية العهد لما استقر الأمر على قرار.

هؤلاء الدهاة الثلاثة، لم يغلب أحد منهم على رأيه بدهاء من معاوية وإنما أفادوا منه جميعًا فوق ما أفادوه.

وتذكر فى هذا المعروض بيعة الحسن فلا يقول قائل من المطنبين فى دهاء معاوية أو من المقتصدين فى أمره أنه كان عملا من أعمال الدهاء دخلت فيه الحيلة على الحسن وصحابته. فإنما بايع الحسن بعد أن ثار به جنده واجترأوا على نهب معسكره حتى امتدت أيديهم إلى البساط الذى يجلس عليه وجرحوه فى فخذه . . وقيل فى أسباب تلك الفتنة ما قيل من مختلف الأسباب والإشاعات فزعم بعضهم أنها نشبت فى المعسكر بعد أن شاع فيه مقتل القائد الأكبر قيس بن سعد، وزعم بعضهم أنها نشبت فيه بعد إشاعة

التسليم وقبول المصالحة بين الحسن ومعاوية . . ولا أمان على كل حال لأنصار يجترئون على إمامهم بالنهب والسطو لسبب من الأسباب كأننا ما كان، بعد ما تقدم من عنت هؤلاء الأنصار للإمام فى حياته وشقاقهم فيما بينهم واستبداد كل منهم بفتواه فى أمر الدين وأمر السياسة والولاية. فلو لم يكن معاوية على حظ من الذهاء - قل أو كثر - لما استعصى عليه أن يظفر من الحسن بالمصالحة على شروطه فضلا عن المصالحة على الشروط التى أمليت عليه.

وما يذكر أحد غير هؤلاء من التابعين المعدودين الذين قصدوا إلى معاوية بالبيعة أو المؤازرة إلا كان على علم بما يقصده قبل لقاء معاوية، فلا خداع فى شأن واحد من هؤلاء المعدودين ولا انخداع.

جاءه عبيد الله بن عمر ففرح به فرحًا شديداً وقال لعمرو بن العاص: ما يمنع عبد الله أن يجيئنا كما جاءنا أخوه؟ قال عمرو: إنما جاءك عبيد الله لأنه يخشى قصاص ابن أبى طالب منه لقتله الهرمزان بغير قضاء، وكان عبيد الله قد قتل الهرمزان لأنه شوهد مع أبى لؤلؤة قبل مقتل أبيه وشوهد معه الخنجر الذى حمله أبو لؤلؤة ووجد معه بعد مقتل الفاروق، فأشار الإمام بالقصاص منه وأبى عثمان ذلك لكيلا يقال: قتل عمر بالأمس ويقتل ابنه اليوم. فلما بلغ الإمام بالخلافة فى الحجاز خرج عبيد الله إلى معاوية ونادى مع المنادين بثأر عثمان، وقال للإمام فى بعض المواقف بين الجيشين: الحمد لله الذى جعلك تطلبنى بدم الهرمزان وجعلنى أطلبك بدم عثمان.

وذهب عقيل بن ابى طالب إلى أخيه يطلب منه مالا لسداد ديون عليه فأنظره موعد العطاء له ولسائر أصحاب الأعطية، فتركه وذهب إلى معاوية فقضى له جميع ديونه وقال له بعد أيام: أنا خير لك من أخيك . . قال

عقيل: صدقت! إن أخى آثـر دينه على دنياه، وأنت آثرت دنياك على دينك، فأنت خير لى من أخى وأخى خير لنفسه منك!

فكل دهاء يذكر لمعاوية فإنما يذكر إلى جانبه رفد أو عطاء وولاية يستفيد منها من ينصـره ولا ينخدع عنها فى مـبادلة النفع بينه وبينه، ولا جرمـر كأن العطاء عماد هذا الدهاء، وكان نقش الخـاتم الذى تختم به بعد ولايته: "لكل عمل ثواب".

ولهذا أعـياه كل الأعباء أمـر المخالفين الذين لا تعـمل فيهم رقـية المال والولاية، فامتنع عليه عبد الله بن عمر لأنه لم ينخدع بالدرهم والدينار "وإنما ينخدع الرجال بهما" كما قـال، وامتنع عليه قيس بن سعد ذلك البطل القوى الأمين الذى حفظ عهده لعلى بن أبى طـالب قبل عزله إياه وبعد عزله، وظل حافظًـا لهذا العـهد بعد مـقتله رضـوان الله عليـه ومصالحـة الحسن لمعـاوية وانفضاض الولايات واحدة بعد أخرى من أعوان بنى هاشم، وقد دانت الدنيا للخليفة الجديد فأرسل إلى قيس صحيفة بيضاء مـوقعة بتوقيعه مختومة بخاتم الخليفة يكتب فيـها ما يشاء فلم يكتب فيها إلا عهـداً بالأمان لأصحابه الذين نصروا عليًا والحسن بقيادته، وجلس الخليفة بالكوفـة يتلقى البيعة من مخالفيه القدمـاء فقال قيس: إن كـنت لأكره مثل هذا اليوم يـا معاوية! فقـال له: مه رحمك الله. عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خـير لكم. قال قيس: لقد حرصت أن أفرق بين روحـك وجسدك قـبل ذلك فأبى الله يا ابن أبى سـفيـان إلا ما أحب قال معـاوية: فلا يرد أمر الله! فأقـبل قيس على الناس بوجهـه فقال: معشر الناس! لقـد اعتضتم الشر من الخير، واستـبدلتم الذل من العز والكفر من الإيمان فأصبحتم بعد ولاية أمـير المؤمنين وسيد المسلمين وابن عم رسول رب العالمـين وقد وليكم الطليق ابن الطليـق، يسومكم الخـسف ويسير فـيكم بالعـسف، فكيف تجـهل ذلك أنفـسكم، أم طبع الله علـى قلوبكم وأنتم لا

تعقلون؟! .. فجثا معاوية على ركبتيه ثم أخذ بيده وقال: أقسمت عليك .. ثم صفق على يده ونادى الناس: بايع قيسا فقال: كذبتم والله ما بايعت .. وضاع صوته بين الصياح والضجيج.

ولم يزل أمثال عبد الله بن عمرو وقيس بن سعد بمعزل عن حزب الدولة الجديدة إلا من آثر الجهاد فى غزو الأعداء ولم يجد علمًا للجهاد غير علم الخليفة القائم بتجنيد الجند وتجريد السرايا على أطراف الدولة من بلاد القياصرة والأكاسرة بطلت كل حيلة من حيل "الثواب" بالمال والولاية مع أمثال هؤلاء القروم الذين كانوا بحق عند المسلمين "بقية الناس".

***

إلا أن معاوية كان يصطنع الحيلة التى تجديه فى كفاح خصومه، وإن لم تكن من قبيل الغلبة بقوة العقل وصولة "الشخصية" الطاغية على من دونها فى البأس والمضاء.

كانت له حيلته التى كررها وأتقنها وبرع فيها واستخدمها مع خصومه فى الدولة من المسلمين وغير المسلمين، وكان قوام تلك الحيلة العمل الدائب على التفرقة والتخذيل بين خصومه بإلقاء الشبهات بينهم وإثارة الآخرين فيهم، ومنهم من كانوا من أهل بيته وذوى قرباه.

كان لا يطيق أن يرى رجلين ذوى خطر على وفاق، وكان التنافس "الفطرى" بين ذوى الأخطار مما يعينه على الإيقاع بينهم كما كان يحدث بين المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص بغير تدبير منه أو بتدبير هين لا تخفى خبيئته على الرجلين، فكان يسمع لكل منهما فى الآخر ويطيع كليهما فى دسه وإغرائه ليعلما بعد ذلك بما صنعه كل منهما من الكيد لصاحبه، فلا يتفقا عليه، وما هما بمتفقين ولا مأرب لهما فى الاتفاق. بل المأرب الذى يحرصان

عليه معًا أن يقوم بينهما حجاز يعطيهما ما يسألان ويكيد بكيدهما كما يحبان.

ودأبه فى الوقيعة بين أهل بيته كدأبه فى الوقيعة بين النظراء من أعوانه. فلم يكن يطيق أن يتفق بنو أمية من غير بيت أبى سفيان، ولم يكن ليهدأ ويستريح أو يوقع بين آل عمومته من بنى العاص . . قال ابن الأثير فى أخبار سنة أربع وخمسين: "وفيها عزل معاوية سعيد بن العاص عن المدينة واستعمل مروان، وكان سبب ذلك أن معاوية كتب إلى سعيد بن العاص أن يهدم دار مروان ويقبض أمواله كلها ليجعلها صافية ويقبض منه فدك وكان وهبها له، فراجعه سعيد بن العاص فى ذلك فأعاد معاوية الكتاب بذلك فلم يفعل سعيد، ووضع الكتابين عنده فعزله معاوية وولى مروان وكتب إليه يأمره بقبض أموال سعيد بن العاص وهدم داره، فأخذ الفعلة وسار إلى دار سعيد ليهدمها فقال له سعيد: يا أبا عبد الملك أتهدم دارى؟ قال: نعم. كتب إلى أمير المؤمنين ولو كتب إليك فى هدم دارى لفعلت . . . فقال: ما كنت لأفعل. قال: بلى والله . . ! قال: كلا . . وقال لغلامه: ائتنى بكتاب معاوية، فجاءه بالكتابين فلما رآهما مروان قال: كتب إليك فلم تفعل ولم تعلمنى؟. قال سعيد: ما كنت لآمن عليك وإنما أراد معاوية أن يحرض بيننا، فقال مروان: أنت والله خير منى. وعاد ولم يهدم دار سعيد. وكتب سعيد إلى معاوية: العجب مما صنع أمير المؤمنين بنا فى قرابتنا أن يضغن بغضنا على بعض . . فوالله لو لم نكن أولاد أب واحد لما جمعنا الله عليه من نصرة أمير المؤمنين الخليفة المظلوم وباجتماع كلمتنا لكان حقًا على أمير المؤمنين أن يرعى ذلك . . فكتب إليه معاوية يعتذر ويتنصل وأنه عائد إلى أحسن ما يعهده. وقدم سعيد على معاوية فأثنى عليه خيراً فقال له معاوية: ما باعد بينه وبينك؟

قال: خافض على شرفه وخفته على شرفه. قال: فماذا له عندك؟ قال: أسره شاهداً وغائبًا".

ومضى معاوية على هذه الخفة التى لا تتطلب من صاحبها حظًا كبيراً من الحيلة والروية، ولعلها تناقض الدهاء فيما ينكشف من عللها التى لا تدق على فهم أحد، فلو أنه استطاع أن يجعل من كل رجل فى دولته جريًا منابذاً لغيره من رجال الدولة كافة لفعل، ولو حاسبه التاريخ حسابه الصحيح لما وصفه بغير مفرق الجماعات، ولكن العبرة لقارئ التاريخ فى زنة الأعمال والرجال أن تجد من المؤرخين من يسمى عامه حين انفرد بالدولة عام الجماعة، لأنه فرق الأمة شيعًا شيعًا فلا تعرف كيف تتفق إذا حاولت الاتفاق، وما لبث أن تركها بعده تختلف فى عهد كل خليفة شيعًا شيعًا بين ولاة العهود!

وكانت خطة التفرقة عامة عنده لا يقصرها على الخصوم ليضرب بعضهم ببعض ويتقى شر فريق منهم بشر فريق، بل كان يتوخى هذه الخطة مقدمًا ومؤخراً وبين كل فريقين وعلى كل حال وفى كل موقف كأنها غرض مقصود لذاته أو كأنها خير "مطلق" لا شر فيه.

وبدأ بهذه الخطة فى السياسة العامة على عهد عثمان فخص المهاجرين بدعوته قبل مرجعه إلى الشام وقام بينهم يقول بعد أن دعاه عثمان للمقال: "أما بعد يا معشر المهاجرين وبقية الشورى فإياكم أعنى وإياكم أريد" . . ثم اتبع ذلك بكلام طويل فى معناه فيه: "يا معشر المهاجرين وولاة هذا الأمر ولاكم الله إياه فأنتم أهله، وهذان البلدان مكة والمدنية مأوى الحق ومنهاه وإنما ينظر التابعون إلى السابقين والبلدان إلى البلدين فإن استقاموا استقاموا وأيم الله الذى لا إله إلا هو . . لئن صفقت إحدى اليدين على الأخرى لا يقوم السابقون للتابعين ولا البلدان للبلدين، وليسلبن أمركم ولينقلن الملك من بين أظهركم، وما أنتم فى الناس إلا كالشامة السوداء فى الثور الأبيض . . ".

ويروى بعض المؤرخين أنه لما استقر له الأمر وبويع له بالخلافة وجاءه وفد الأنصار أمر أن يدعى كل منهم باسمه إلى حضرته بمشورة عمرو بن العاص الذى كره أن يدعى الجمع كله باسم الأنصار، ولكن عمرو بن العاص لم يكن معه يوحآ إليه حين خص المهاجرين بتلك الدعوة قبل أن يتفقا على شىء فى أمر الدولة، ولم يكن سلطان عمرو هو الذى احتمى به الأخطل حين اجترا على هجاء الأنصار فقال:

ذهبت قريش بالمكارم كلها

واللؤم تحت عمائم الأنصار

فإنما اجترأ الشاعر هذه الجرأة بما علم من رضى الخليفة وأمانه أن يصيبه مكروه من جراء ذلك الهجاء.

ولم تقف خطة التفرقة عند هذه التفرقة بين مكة والمدينة لأنه عمد إلى أهل مكة والطائف فى بقعة واحدة ففرق بينهما حين آثر الثقفيين - وهم أهل الطائف - بزلفاه وسن لمن بعده سنة هذا الإيثار، فكان من رجال بنى أمية المغيرة وزياد والحجاج ومحمد بن القاسم ورهط من الأقربين والصنائع، وكانت الطائف على عهد معاوية وخلفائه كالحرس على أهل مكة ممن بقى فيها غير الأمويين السفيانيين، وقد أوقع بين هؤلاء الأمويين كما تقدم فقسمهم بين بنى حرب وبنى العاص، وقسم بنى العاص بين بيت سعيد وبيت مروان.

***

ومن خطط التفرقة التى حسنت لديه فى حينها، وساءت عقباها بعد حين، وبعد كل حين - ذلك النزاع المشئوم لين اليمانية والمضربة، أو بين الكلبيين والقيسيين على اختلاف النسب والعناوين، وقد خبط الأكثرون من

مؤرخى العصر فى تعليله بمختلف العلل، إلا العلة المقصودة التى دبرت فى ذلك العصر أسوأ تدبير، ولعل المدبرين كانوا يحسبونه يومئذٍ أحسن تدبير.

فالعصبية فى القبائل العربية خليقة لا تهمل فى حساب المنازعات والمناظرات فى زمن من الأزمان، ولكنه من السخف أن يقال أن العصبية كانت علة انتصار اليمانية لنبى أمية على بنى هاشم، وأن اعتزاز الهاشميين بالنبوة هو الذى أحفظ عليهم صدور القبائل من غير المضربين الذينى ينتمى إليهم بيت النبوة من بنى هاشم.

فقد كان بنو هاشم وبنو أمية جميعًا من قريش، وكان اعتزاز بنى أمية بالنسبة القرشية أظهر وأجهر من اعتزاز الهاشميين عند قيام دولتهم - دولة الأمويين - إذ كانت هذه النسبة حجتها من جانب النسب فى استحقاق الخلافة وقد كانت اليمن هى القطر الوحيد الذى رحب بوالى الإمام على فى أول بيعته، وكان الأنصار أهل المدينة من حزبه وهم - بين أوس وخزرج - ينتمون إلى اليمانية، وكانت كندة تنصره وظلت على نصرته ونصرة أبنائه زمنًا طويلا بعد قيام الدولة الأموية والدولة العباسية، وكان أشد أعوان الفاطميين بعد ذلك من اليمانية فى المشرق وفى المغرب ولما تلاقى جيش على وجيش معاوية فى وقعة صفين كانت القبيلة العربية الواحدة تقاتل فى كلا الجيشين . . قال ابن الأثير: "وسأل على عن القبائل من أهل الشام فعرف مواقفهم فقال للازدياد: أكفونا الأزد، وقال لخثعم: أكفونا خثعم، وأمر كل قبيلة أن تكفيه أختها من الشام إلا أن تكون قبيلة ليس منها بالشام أحد فيصرفها إلى قبيلة أخرى من الشام ليس بالعراقق منهم أحد مثل بجيلة لم يكن بالشام منهم إلا القليل صرفهم إلى لخم . . ".

فالنزاع بين اليمانية والمضربة لم يكن نزاعًا على فخر النبوة ولا على فخر الخلافة عند بداءة أمره، وإنما كان نزاعًا بين سلاحين أو بين جيشين

متنافسين فى مكان واحـد عدا ما هنالك من النزاع بين الفكرتين. ونحن نرى فى عصـرنا - وفى كل عصر - أمـثال هذا التنافس بين الأسلحـة كلما جنح ولاة الأمر إلى فريق منهم دون فـريق، وقد رأينا هذا التنافس بين سلاح البر وسلاح البحرر وسلاح الهواء فى الجمهورية الفضية وكلهم من جنس واحد أو قومية واحدة لأن ولاة الأمر هناك يؤثرون سلاحًا على سلاح فى التنازع بينهم على السند الذى يستندون إليه.

لقد كـانت عصبيـة النسب عنوانًا من عناوين الخلاف بين قبـائل اليمن وقبائل مضر فى دولة بنى أمية بالشـام، ولكن هذه العصبية لم تكن لازمة كل اللزوم لإثارة الخلاف حينما أريد لغرض من أغراض السياسة، وقد حدث مثله بين قـبـائل اليـمن وحـدث مثله بـين قبـائل مـضـر على حـسب الطوارئ والمناسبـات، ولو كان الجند كلهم مـن قبيلة واحـدة واراد ولى الأمر أن يثـير المنافسة بينهم لما أعياه ذلك كما حـدث فى هذا العصر بين الشعوب الأمريكية فى الجنوب على ما قدمناه.

ومعاوية كان يريد النزاع بين اليمانية والمضربة ولم تكن له من خطة ثابتة فيه غير التفرقة بينهم تارة إلى هؤلاء وتارة إلى هؤلاء، وقد كان هو نفسه من المضريين ولكنه كـان يبدو فى بعض الأحايين كأنه من أبناء اليـمن عدو لأبناء مضر، وطابت له هذه السياسـة فاستمروا مرعاها الوخيم حـتى كانت عقباها ضياع الدولة الأموية كلها بعد جيلين.

***

وأبرع ما برع فـيه من ألوان الدهاء إلقاء الشـبهة بين خصـومه فى زمن كانت فيه هذه الشـبهات من أيسر الأمور، لكثرة التـقلب والتحول فى الدول والممالك بين أنصار اليوم وخصوم الأمس أو أنصار الأمس وخصوم اليوم.

كان إذا أراد أن يستميل أحد البطارقة من دولة الروم فاستعصى عليه كتب له رسالة مودة وثناء وأنفذها مع رسول يحمل إليه الهدايا والرشى كأنها جواب على طلب منه يساوم فيه على المصالحة والغدر برؤسائه من دولة الروم، ويخرج الرسول العربى من طريق متباعد كأنه يتعمد الروغان من العيون والجواسيس، فإذا اعتقله الروم - ولابد أن يعتقلوه لأنه يتعرض للاعتقال ويسعى إليه - وقعت الشبهة على البطريق المقصود وتعذر الاطمئنان إليه من قومه بعد ذلك، وعزلوه وأبعدوه إن لم ينكلوا به أشد النكال.

وقد احتال بمثل هذه الحيلة على قيس بن سعد حتى أوقع الريبة منه فى نفس الإمام وساعدته الحوادث على خبق هذه الريبة كما أجملنا فى كتابنا عن عبقرية الإمام "فشبهاته لم تكن بالقليلة ولا بالضعيفة. فإن قيس بن سعد لم يدخل مصر إلا بعد أن مر بجماعة من حزب معاوية فأجازوه ولم يحاربوه وهو فى سبعة نفر لا يحمونه من بطشهم، فحسبوه حين أجازوه من العثمانية الهاربين إلى مصر من دولة على فى الحجاز، ولما بلغ المصريون عليًا بقى العثمانيون لا يبايعون ولا يثورون وقالوا لسعد: أمهلنا حتى يتبين لنا الأمر، فأمهلهم وتركهم وادعين حيث طاب لهم المقام بجوار الإسكندرية . . وأراد الإمام أن يستوثق من الخصومة بين قيس ومعاوية فأمر قيسًا أن يحارب المتخلفين عن البيعة فلم يفعل وكتب إليه يقول: إننا متى قاتلنا ساعدوا عليك عدوك وهم الآن معتزلون، والرأى تركهم . . . ".

وتعاظمت بعد ذلك الظنون فى زمن صدقت فيه أكثر هذه الظنون. فأما معاوية فلم يكن يكربه الظن ولا الشبهة بالظن لأنه يعمل المنفعة التى يعطيها والمنفعة التى يريده أعوانه من أجلها، وأما الإمام فلم تكن له عصمة من الظن غير الحيطة وغير التجربة، ولم تكن للتجربة سابقة مقطوع بها بل كانت كلها مما سينجلى عنه مستقبل مجهول.

فهذه الحيلة - حيلة الشبهة - كانت من أنجح الحيل فى سياسة معاوية مع خصونه، لأنه زمن الشبهات وهى كثيرة فيما ابتلاه أولئك الخصوم، وقد نجحت ونجعت بفضلين لا بفضل واحد: أحدهما فضل التدبير والآخر فضل الحوادث بغير تدبير.

***

وحيلة أخرى لا نجزم بها ولكننا نشير إليها فى مكانها مما رواه الرواة عن الوسائل "الخفية" التى توسل بها معاوية للغلبة على خصومه ومنافسيه، وحسبت يومئذٍ من ضروب دهائه، أو من ضروب كيده وهو مرادف عند عامة القوم لمعنى الدهاء.

مات الحسن ومات مالك بن الأشتر الذى ولاه الإمام مصر بعد عزل قيس، ومات عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وعوجلوا جميعًا بغسر علة ظاهرة فسبق إلى الناس ظن كاليقين أنها غيلة مدبرة، وأن صاحب الغيلة من كان له نفع عاجل بتدبيرها، وهو معاوية.

ونقل عن ابن العاص بعد موت الأشتر أنه قال: "إن لله جنودًا من عسل" . . . وكان موت الأشتر بعد شربة من العسل لم تمهله غير ساعات.

ونقل الخبر عن دس السم للحسن رضوان الله عليه مؤرخ من الأمويين هو أبو الفرج الأصفهانى صاحب الأغانى المشهور.

قال فى كتابه مقاتل الطالبيين: "أرسل معاوية إلى ابنه الأشعث انى مزوجك ببزيد ابنى على أن تسمى الحسن ابن على . . وبعث إليها بمائة ألف درهم فقبلت وسمت الحسن فسوغها المال ولم يزوجها من يزيد - فخلف عليها رجل من أهل طلحة فأولدها، فكان إذا وقع بينهم وبين بطون قريش كلام عيروهم وقالوا: يا بنى مسمة الأزواج".

وقال ابن الكلبى عن أبيه فى سبب موت الأشتر: "إنه لما سار الأشتر إلى مصر أخذ فى طريق الحجاز فقدم المدينة فجاءه مولى لعثمان بن عفان يقال له نافع وأظهر له الود وقال له: أنا مولى عمر بن الخطاب. فأدناه الأشتر وقربه ووثق به وولاه أمره، فلم يزل معه إلى عين شمس فلما وصل إلى عين شمس تلقاه أهل مصر بالهدايا وأسقاه نافع المذكور العسل فمات منه . . ,قالل ابن سعد أنه سم بالعريش، وقال الصورى صوابه القلزم . . . ".

وجاء فى أخبار سنة ثمان وثلاثين لابن الأثير: "خرج الأشتر يتجهز إلى مصر وأتت معاوية عيونه بذلك فعظم عليه وكان قد طمع فى مصر فعلم أن الأشتر أن قدمها كان أشد عليه من محمد بن أبى بكر فبعث معاوية غلى المقدم على أهل الخراج بالقلزم وقال له: أن الأشتر قد ولى مصر فإن كفيتنيه لم آخذ منك خراجًا ما بقيت وبقيت. فخرج الجايسات - وفى رواية الطبرى الجايستار - حتى أتى القلزم وأقام به وخرج الأنشر من العراق إلى مصر فلما امتهى إلى القلزم استقبله ذلك الرجل فعرض عليه النزول فنزل عنده فأتاه بطعام فلما أكل أتاه بشربة من عسل قد جعل فيه سمًا فسقاه إياه فلما شربها مات . . وقام معاوية خطيبًا ثم قال: "أما بعد فإنه كانت لعلى يمينان فقطعت أحدهما بصفين - يعنى عمار بن ياسر - وقطعت الأخرى اليوم - يعنى الأشتر".

واتفق ابن الأثير والطبرى على رواية واحدة فى الجملة عن موت عبد الرحمن بن خالد بن الوليد "وكان سبب موته - كما جاء فى ابن الأثير - أنه كان قد عظم شأنه عند أهل الشام ومالوا إليه لما عندهم من آثار أبيه ولغنائه فى بلاد الروم ولشدة بأسه، فخامة معاوية وخشى منه، وأمر ابن أثال النصرانى أن يحتال فى قتله وضمن له أن يضع عنه خراجه ما عاش وأن يوليه خراج حمص، فلما قدم عبد الرحمن من الروم دس له ابن أثال شربة مسمومة مع بعض مماليكه فشربها فمات بحمص فوفى له معاوية بما ضمن له، وقدم خالد بن عبد الرحمن المدينة فجلس يومًا إلى عروة بن الزبير فقال

له عروة: مـا فعل ابن أثال؟ فقـام من عنده وسار إلى حمص فـقتل ابن أثال فحمل إلى معـاوية فحسبه أيامًا ثم غرمـه ديته، ورجع خالد إلى المدينة فأتى عروة فقال عروة: ما فعل ابن أثال؟ فقـال: قد كفيتك ابن أثال ولكن ما فعل ابن جرموز؟ يعنى قاتلل الزبير. فسكت عروة!".

وسبق الطبرى فقال: "ذكر ابن جرير وغيره أن رجلا يقال له ابن أثال - وكان رئيس الذمة - سقاه شربة فيـها سم فمات، وزعم بعضهم أن ذلك عن أمر معاوية له فى ذلك ولا يصح، ورثاه بعضهم فقال:

أبوك الذى قـــاد الجيـوش مـــغـربًا

إلى الروم لما أعطـت الخـرج فـارس

وكم من فـتى نبـهـته بـعد هجـعـة

بقـــرع لجـــام وهو أكـــثـع ناعس

ومـا يسـتوى الصـفـان صف لخـالد

وصف عليـــه من دمـشق الـبـرانس

وقد ذكروا أن خالد بن عبد الرحمن بن خالد قدم المدينة فقال عروة بن الزبير: "مـا فعل ابن أثال؟". فـسكت. ثم رجع إلى حمص فـثار على ابن أثال فقتله فقال: "قد كفيتك إياه. ولكن ما فعل ابن جرموز؟ فسكت عروة. ومحمد بن مسلمة فى قول".

وشاعت الشـوائع بمثل ذلك عن آخرين مـن أعداء معـاوية ومنافسـيه، يملى للناى فى تصديقها أن هؤلاء الأعداء ماتوا بغـير علة موصوفة فى الموعد الذى يبغيـه معاوية وتترتب عليه سيـاسته التى كان يرجئهـا إلى مواعدها . . فالحـسن يمـوت قبل بيـعة يزيد كى لا يخـرج معـاوية على شرطه المكـتوب للحسن، ومالك بن الأشتر يموت على أبواب مصر، وعبد الرحمن بن خالد يموت وهو فـى أوج سمعـته بين قـوم أعجبـوا به وأعجـبوا من قبلـه بأبيه، ويوشك أن يتجمع حـوله الناقمون من أهل الشام وأهل الكوفـة والحجاز . .

وكله مما يذكر ولا يجعل بنفيه ولكنه لا يقوم عليه دليل قاطع، وأضعف ما فى هذه الروايات تكرار المكافأة بإسقاط الخراج وهى مكافأة لا توافق جنايات الغدر والغلية لأنها تتجدد فى كل موعد خراج ولا يزال السؤال عن سبب إسقاطه متجددًا بين العمال وأصحاب الأمر حتى تنكشف المكيدة كلها مع الأيام، وما كان معاوية بعاجز عن المكافأة على دس السم للأعداء ببذل لالمال المعجل والمؤجل فى الخفاء، فلا يسع المؤرخ أن يقبل هذه التهم جازمًا ولا أن يرفضها جازمًا، ولكن الشبهات والأقاويل وحدها تحدثنا بالشىء الكثير عن ظنون الناس بمعاوية ووسائله إلى قضاء ما يبغيه.

***

ونحسب أننا فى هذا الفصل قد ألمنا بأفانين الدهاء التى نسبت إلى رأس الدولة الأموية، ويتبين منها جميعًا أن دهاءه من قبيل الدهاء الذى يعول على قضاء المصالح وتبادل المنافع ويتساوى فيه دهاء الطرفين أو يكون الرجحان من قبل الطرف الآخر. فليس دهاء معاوية من قبيل ذلك الدهاء الذى يسوق الأعوان سوقًا إلى خدمة مقاصده بسلطان القدرة العقلية الخارقة وغلبة الإقناع الذى لا برهان فيه على الحقيقة ولكنه ضرب من "التنويم المغناسيطى" تعمل فيه المشيئتان بمشيئة واحدة.

وإنما استطاع معاوية أن يستهوى الناس إليه بقضاء المصالح لقيامه على ولاية الشام عشرين سنة واستئثاره بأقطارها جميعًا على أيام عثمان بن عفان، واحتجازه لما شاء من أموالها وخيراتها وولاء أعوانها بغير رقابة عليه بعد أيام الفاروق.

فالرجل على نصيب متوسط من العقل يملى له طبع مفطور على الأناة لم تتعجله الحوادث قط كما تعجلت منافسيه فى الحجاز والعراق، وكان ذلك النصيب حسبه من العدة فى ذلك النزاع الذى لا سواء فيه بين المصاعب والعقبات من الجانبين.

ولو أنه قورن بينه وبين زملائه فى سعة الدهاء لكان آخر الأربعة صفا أو لم يكن على اليقين أول الأربعة قبل عمرو بن العاص على الخصوص، فإن الفارق بينهما كالفارق بين العبقرية والمدربة أو بين العقل المشبع بالقوة الحيوية والعقل الذى قصاراه من الرأى أن يحذر ويتربص ويتجنب حيثما كان.

كان دهاء عمرو سلاح هجوم ودفاع، وكان دهاء معاوية سلاح دفاع دائم على أحسن الأحوال، وكان هو يجهل موازين الرجحان بين الدهائين ويحسب أن اتقاء العواقب هو كل ما يطلبه الداهية من دهائه، كأنما الدهاء سلاح يعمل علم الدرع ولا يعمل عمل السيف أو السهم فى وقت من الأوقات.

سأل معاوية عمرو بن العاص: ما بلغ من عقلك؟ قال: ما دخلت فى شىء قط إلا خرجت منه. قال معاوية: لكننى ما دخلت فى شىء قط وأردت الخروج منه!

ولم يكن عمرو ليقتحم المخاطر على الرغم منه ث يبحث عن مخارج النجاة منها، ولكنه كان يقتحم الخطر ويقول غير مرة: "عليكم بكل مزلقة مهلكة" .. لأنه كان على ثقة بدهائه كلما ثاب إليه، وعلى وفاء لطبيعة الأقدام والاقتحام التى تقترن بالعبقرية ودوافع القوة الحيوية، وليس من عزم الأمور دهاء لا يندفع بصاحبه فى المضمار ولا يرجى من نفعه قط إلا أنه لجام.

ولا نكران - بعد - لدهاء معاوية على هذا التقدير، وإنما قصاراه من هذا التقدير أنه لم يضيع الفرصة التى سنحت له وأنه صبر فى انتظارها وأطال الصبر غير متعجل لها قبل أوانها. وقد كان ذلك حسبه فيما توخاه.

***